مفتاح شخصيته

تقدَّمت الإشارة إلى قصَّة الشَّبه القريب بين خالد بن الوليد وعمر ابن الخطَّاب في ملامح الوجه وطول القامة. وأنَّهما كان من التقارب بحيث يشتبه الأمر على قصير النظر وهو يتكلم إليهما. فيخاطب عمر بن الخطاب وهو يظنُّ أنه يخاطب خالد بن الوليد.

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين أن الشَّبه بينهما تعدَّى الملامح والقامة إلى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية. فكلاهما يجوز أن يُقالَ فيه أنَّه "جندي" بالفطرة وأن "مفتاح شخصيته" هو السليقة الجندية. فإذا أحضرنا في أخلادنا كلمة "الجندي" أو الجندي المطبوع لم نجد في ابن الخطاب ولا في ابن الوليد صفة لا تحتويها هذه الكلمه في معنى من معانيها.

وبين الرجلين فارق لا خفاء به في الخلق والتفكير.

لكنه فارق لا يخرج بهما من نطاق هذه الطبيعة.فكلاهما جنديٌّ مطبوع على الخلائق الجندية ولكن ابن الخطاب تغلب عليه. من مزاج الجنديِّ. ناحية الروحية أو ناحية الضمير. وابن الوليد تغلب عليه من هذا المزاج نفسه ناحية الحيوية أو ناحية البنيان والتركيب.

وأصحُّ من هذا أن تقول أن عمر كان جنديًّا في أخلاقه الوازعة الحاكمة. وأن خالد كان جنديًّا في أخلاقه الدافعة الهاجمة. وفى الجنود. كما لا يخفى هذه الأخلاق وهذه الأخلاق.

ولا ريب أن هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله إنَّما هو قبل كلِّ شيءٍ فارق بين نفسين. أو بين رجلين. أو بين "شخصيتين".

لكن هذا لا يمنع أن يكون في الوقت نفسه فارقًا بين "قبيلتين" وبين أسرتين وبين نشأتين فإن الفوارق بين بني عديٍّ قبيلة عمر وبين بني مخزوم قبيلة خالد لخليقة أن تتجة بالمزاج المتقارب وجهتين متباينين.

فبنو عدي – آل عمر – كانوا في الجاهلية أهلَ تحكيم ومعرفة بالفصل في الخصومات – وقد ذاقوا كما قلنا في "عبقرية عمر": "طعم الظلم من أقربائهم بني عبد شمس. وكانوا أشدَّاء في الحرب يسمونهم لعقَة الدَّم. ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلَّة عددهم بالقياس إلى عَدَد أقرابئهم فاستقرَّ فيهم بغضُ القويِّ المظلوم للظُّلم وحبَّه للعدل الذي مارسوه ودربوا عليه".

أمَّا بنو مخزوم – آل خالد – فكانوا على خلاف ذلك أهل الحرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء. وكانوا في الجاهلية موكَّلين بالخيل والسلاح. معتزين بالعتاد التليد. والعدة والعديد.

وكان ثراؤهم يملي لهم في أسباب الترف والنعيم كما تملي لهم فيه مزية أخرى من المزايا التي تكلفها للقبيلة عزَّة السلطان وطول العهد بالحضارة والرئاسة. وتلك المزية هي جمال النساء.

فقد كان يقال أن "المخزوميَّات" رياحين العرب.

وكان في رجالهم ذلك الغزل الذي أخرج منهم شاعره الأوَّل عمر ابن أبي ربيعة. بل أخرج منهم غزليين ظرفاء حتى في النساء والأتقياء.

جاء في كتاب الأغاني عن أبي السائب المخزومي: "أنَّه كان رجلًا صالحًا زاهدًا متقللًا يصوم الدَّهر. وكان أرقَّ خلق الله وأشدَّهم غزلًا. فوجه ابنه يومًا يأتيه بما يفطر عليه. فأبطأ إلى العتمة. فلما جاء قال له: "يا عدوَّ نفسه. ما أخَّرك إلى هذا الوقت؟ قال: جزتُ بباب بني فلان فسمعت منه غناءً فوقفت حتى أخذته. فقال: يا بنيَّ. فوالله لئن كنت أحسنت لأحبُونَّك. ولئن كنت أسأت لأضربَّنك. فاندفع يغني بشعر كثير:

ولما علوا شغبا تبينت أنه

تقطَّع من أهل الحجاز علائقي

فلا زلن حسرى ظلَّعًا لم حملنَها

إلى بلدٍ ناءٍ قليلِ الأصادِقِ

فلم يزل يغنِّيه إلى نصف الليل. فقالت له زوجته: يا هذا. قد انتصف الليل وما أفطرنا. قال لها: أنت طالق إن كان فطورنا غيره. فلم يزل يغنية إلى السحر. فلما كان السحر قالت زوجته: هذا السحر وما أفطرنا. فقال: أنت طالق إن كان سحورنا غيره. فلمَّا أصبح قال لابنه: خذ جبَّتي هذه وأعطني خلقك ليكون الحباء فضل ما بينهما. فقال له: يا أبت.....أنت شيخ. وأنا أقوى على البرد منك. قال: يا بنى..... ماترك صوتك هذا البرد عليَّ سبيلًا ما حييت".

واطَّرح كل ما في هذه القصة من المبالغة والإغراق تبقى منها كافية لبيان مكان الغزل من نساء بنى مخزوم. فضلا عن الشعراء والظرفاء.

وندفع القبيلة إلى الأسرة فيتراءى لنا النظرة الأولى ذلك الاختلاف الذي لا بدَّ منه بين معيشة الخطَّاب ومعيشه الوليد. أو بين معيشة الرجل الكادح لنفسه الخشن في ملمسِه. وبين معيشةِ الرجل المترف الفخور بالمال والبنين والجاه المكين.

لكنه مع هذا فرق في المعيشة لا يتغلغل إلى بواطن الطباع. إنَّما الفرق المتغلغل إلى بواطن الطباع. بل إلى أعمق أعماقها. هو فرق البنية العصبية بين أبناء الخطاب وأبناء الوليد.

فمن أوصاف أبناء الوليد عامَّةً ينكشف لنا "قلق عصبيٌّ" في هذه الأسرة قد تطرَّف جدَّ التطرُّف في أفراد منها. واعتدل بعض الاعتدال في آخرين.

فعمارة بن الوليد هو الذي له منه الاضطراب أن يراود امرأة في محضر زوجها. وأن يتجرأ على حرم النجاشي بالمغازلة. ثم يتجرأ بالتحدث عن هذه المغازلة حديث الفخر والمباهاة.. ثم ينطلق مع الأوابد أي الآجام بفعل السواحر كما قيل. وهو قول لا يخفى مدلوله في لغة العصر الحديث.

وذكر عن خالد كما ذكر عن أخيه أنه كان يتفزَّع في نومهِ. فذالك أثر من آثار (أعصاب الأسرة) كلِّها على ما هو واضح من جملة المشاهدات في أبنائها. أنها كان يجمح بهم في حين ويكبح في حين.

وقد كان خالد يغضب فينتقع لونه كما جاء في كتب الفتوح من حديث المغاضبة بينه وبين أبي عبيدة بعد تسليم دمشق ومصالحة أهلها.

وقد كانت علة المغاضبة أن أبا عبيدة يحسب التسليم صلحًا وخالدًا يحسبة غلبًا يحقُّ فيه على المغلوب جزاءا السَّبي والاغتنام والقصاص....

وكانت في خالد حدَّة يملكها أو تملكه آونةً بعد آونةٍ وفى القليل الذي بلغنا إشارة إلى الكثير الذي لم يبلغنا. فقد غاضب أبا عبيدة وغاضب عبد الرحمن بن عوف وغاضب عمار بن ياسر. وقال له عمار وقد سمع منه ماساءه: "لقد عممت ألَّا أكلِّمك أبدًا" فأصلح بينهما النبيُّ عليه السلام وهو يقول لخالد: " ياخالد.. مالك ولعمار رجل من أهل الجنية قد شهد بدرًا" ثمَّ يقول لعمار: "إن خالد يا عمَّار سيف من سيوف الله على الكفَّار".

فهذا الفارق بين الأسرتين. وذلك الفارق بين القبيلتين مفسران صالحان لاختلاف لوني "الجندية" في شخصية الرجلين العظيمين. عمر إلى الجندية الموزوعة وخالد الى الجندية المدفوعة، وعمر إلى الشظف المختار وخالد إلى المتاع المباح.

ولا يرد إلينا العجب بعد هذا أن يكون شعور خالد بالمرأة هو شعوره ذاك الذي أهدفه للملاحظة والمؤاخذة مرَّاتٍ. وجعل من مؤاخذيه أرغب الناس في عذره والثناء عليه. ونعني به الخليفة الصدِّيق.

وقد كان هذا الشعور يلازمه أبناء الثراء من حبِّ الرفاهية وبهجة الحياة.

فلم يفرغ من الحرب قطُّ إلا انقلب منها إلى وادٍ ظليل في صحبة زوج محبَّبة إليه.

فقضي في وادي الوبر باليمامة أيام الدعة بين زوجيَّه بنت مجاعة وبنت المنهال. وقضي في دومة الجندل أيَّام الهدأة بين الوقائع في صحبة ابنة الجودي الحسناء. واستطاب المقام بحمص بعد العزل وآثره على المقام بالحجاز. وأغضب الفاروق لأنه "كان يدخل الحمام فيتدَّلك بعد النورة بثخين معجون بخمر" فلمَّا لامه الفاروق في ذلك قال: إنا قتلناها فعادت غسولًا غير خمر. ثمَّ قال يخاطب عمر:

سَــهِّل أبــا حَفــصٍ فــإنَّ لــديننا
شرائــعُ لا يــشقى بهــنَّ المــسهِّلُ
وهــل يُــشْبِهَنْ طَعْــمُ الغــسول وذوقُــه
حميَّــا الخمــورِ والخمــور تُسَلْــسَلُ[1]

وفى كلّ أولئك هو سليل حق لبني مخزوم ولبيت الوليد. وترجمان صدق لتلك البنية العصبية المتفززة التي تجنح به إلى المتعة في أيام الدعة كما تجنح به إلى البطولة في مقام الجلاد والعناد. وتفسِّر لنا الجنديَّ الذي تميل به القوة الحيوية تارة إلى لقاء الحسان وتارة إلى لقاء الأقرانِ.

وهو نفسه قد أبان عن طويته كلِّها غير عام حيث قال: "ما ليلة تزفُّ إليَّ فيها عروس أنا لها محبٌّ أو أبَشَّر بغلام أحبُّ إليَّ من ليلةٍ شديدةِ الجليد في سريَّةٍ من المهاجرين أصبح بها العدوَّ. فعليكم بالجهاد".

فالحرب عنده اشتهاء والعروس عنده غاية المتاع.

---

(١) البيتان من الطويل.

والحرب في رأيه حسناء تشتهى أبدًا ولا تثبت كصاحبة الزبيديِّ التي تكون شمطاء جزت شعرها وتنظرت. مكروهة للشم و التقبيل وأيا كانت متعته بالمرأة الحسناء أو بالمقام الوثير فهى متعة القويِّ اليقظان وليست متعة الضَّعيف المستنيم.

هى متعة المسافر الذي يستريح إلى الواحة لينفضَ عنه الجهدَ ويتزوَّد منها لجهدٍ جديدٍ. وليست متعةَ المتهافِتِ الذي يتوقُ إلى مهادِ الراحة لينغمس فيها ويستكين إليها ولا يفيق من سكرته.

بل هو يحبُّ المتعة لأنَّه يحبُّ الجهاد. فإذا طالت عافها وبرم بها واجتواها. وأنف أن يقنع بها ويستمرئها. فلم يطق سنة واحدة بالحيرة بين حروب فارس وحروب الروم. وسماها "سنة النساء" لأنها كانت سنة راحة من العناء. مع أنها كانت راحة المتربص المتوقز. وكانت راحة تتخللها وثبات وضربات من هنا وهناك.

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير. ليأخذ من الشدة والبأس بأوفر المقادير.

لأن طبيعته القوية هيأته للشدَّة والبأس قبل كلِّ شيءٍ. وما بقى من الطبيعة للرياضة فقد أتمته الرياضة بعزيمة الجبابرة التي لا تلين وباستمراء ما لا مراءة فيه من طعام وشراب. وبأكل الضبِّ وشبر السمِّ ومطاولة الركوب أيامًا بعد أيَّام.

لا جرم يكون أكبر الأسي لتلك النفس في ساعةِ الموت أنَّها تموت على الفراش أو على حد قوله: "كما يموت البعير": " لقد طلبت القتال في مظانه. فلم يقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي ولقيت الزحوم وما في

جسمي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنةٌ برُمح. وها أنا أموت على فراشي حَتفَ أنفي كما يموت البعير. فلا نامت أعين الجبناء.

وأقرب شيءٍ أن يلاحظ في سيرة خالد – من نشأته إلى وفاته أن هذا الولع كله بالحرب لم يكن ولعًا بالشرِّ والسوء أو ولعًا بالضغينة والبغضاء. فكانت عداواته كلها عداوات جنديٍّ مقاتل ولم تكن عدوات مضطغن آثِمٍ. ولم يعرف قط عنه أنه حمل الضغينة لأحدٍ من الناس ولو أنه اضطغن على أحَدٍ لكان أحَقَّ الناس أن يضطغن عليه عمر بن الخطَّاب. لأنَّه عزله وشطر مالَه وأبقاه في العزلةِ سنوات. ولكنه لم يعمل عملًا واحِدًا ولم يقل كلمَةً واحدَةً تدلُّ على ضِغْن عليه. وقد سامحه والتمس له العذر وعلم أنَّه قد أراد وجه الله بما حاسبه عليه. وكان أشَدَّ ما قاله فيه: "الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحبَّ إليَّ من عمر. والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض إليَّ من أبي بكر ثمَّ ألزمني حبَّه" وربَّما ذكره وهو غاضب فسمَّاه "الأعيسر بن أم شملَة" فكانت هذه الكلمة أدلَّ على التحبب منها على الكراهة. ولاحت كأنها كلمة المغلوب في لعبة لا في غرض عظيم يقعد ويقيم.

وقد يكون كثيرًا أن تتسع هوة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والضغينة. وأنها لأولى أن تتسع بينهما حيث تكون الحرب ميدان التضحية والفداء في سبيل الغيرة القومية أو في سبيل الإيمان والضمير. وحيث يكون الرجل قد تربى على مراسها وطبع في نفسة على مزاج بألف القتال ولا ينفر منه..

وليس في المجتمعات الإنسانية التي تصبح الحرب فيها ضرورة من ضروريات الحياة والشرف باعث إلى النفرة من القتال. ولن تزال القدرة على الحرب شرفًا وشجاعة الى آخر الزمان. ما دام في بني الإنسان من يحمل السلام للعدوان والبغي والتلصُّص والمراء. فيتقنه بنو الإنسان بمن يحمل السلاح للحقِّ والعقيدة والإنصاف.

وعلى كثرة من قتل خالد في حروبهِ لم يكن يقتل أحدًا قط وهو يشكُّ في صواب قتلهِ وإن أخطأ وجه الصواب. فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف الجلَّادين بأمره في "نهر الدم" كانوا يستحقُّون عند القتل قربانا إلى الله وجزاءً لهم على عناد الشرك والإصرار.

أما إذا شَكَّ في صوابه فهو يستكثر المسائه إلى رجل واحِدٍ فضلًا عن الجحافل والقبائل. ويسبق إلى الرفق رَجُلًا كأبى عبيدة عرف طوال حياته بالرفق والرحمة والأناة. فيقول له وقد تناول رجلا بشيء: إني لم أرد أن أغضبك ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أَشَدَّ الناس عذابًا يوم القيامة أشد الناس عذابا للناس في الدنيا".

فهو مطبوع على عداء الجنديِّ المقاتل وليس بالمطبوع على عداءِ الدسيسة والشرِّ في صغائر العيش وسفاسف الأمور.

كذلك لا يفهم من ولعه بالحرب على هذه الصفة أنَّه كان مبتلًى بذلك الولع الأهوج الذي يبتلى به من لا يعقلونَ هجومًا إلَّا كهجوم الريح أو فرارًا إلا كفرار الحيوان.

فقد كان يقدِم عن علم بمواضع الإقدام. ولذلك لم ينهزم قط وهو مسؤل عن الهزيمة. وإنَّما هزم في حنين مرَّةً واحدَةً وهو مسئول عن اليوم كلِّه كما قدَّمناه.

أما إذا وجب التراجع فالشجاعة كلّ الشجاعة عنده أن يؤمن بهذه الحقيقة وأن يدبر أَمْرَ التراجع بعد ذلك على النحو الذي يصون الكرامة ويصون الدماء. ويكون المخدوع المغلوب فيه هو الذي أمكن التراجع من بين يديه. وقد كان وسعه أن يبطش بالمتراجعين قبل أن يفلتوا من أوهاقه المطبقة عليهم.

هذه هى الجندية البصيرة بمزاياها في الكفَّة الراجحة والكفة المرجوحة أو هذه هى الجندية الغالبة أبدًا وهى في إقدام أو في إحجام.

ولقد كادَت هذه الطبيعة الجندية أن تحيط بكلِّ ما رزق من طبيعة حيَّةٍ. فمن أقواله: أنَّ الجهاد شغلني عن تعلُّم القرآن. أو قراءة كثير من القرآن...

وعُذْرُه في ذلك حين قال ذلك المقال أنَّه لم يقض في ملازمة النبيِّ غير أوقات جدَّ قصار. لأنه شُغِل السنوات الثلاث التي قضاها مع النبيِّ بعد إسلامه وهو بين السرايا والغزوات.

وقد كان يخطب ويكتب ويقول الأبيات من الشعر والرجز على مثال ما قدَّمناه. ولكنها الخطب والكتب التي يستطيعها العربي الفصيح الناشئ في كنف الفصحاء. ثمَّ هي كلها ملحقة بوظيفة الجندية فيه. فإذا قال كلمة أو كتب شطرا فكأنما يكتب بحسام لا بيراع..

كتب الى مرازبة فارس فقال: (الحمد لله الذي فضَّ ملككم وأذلَّ عزَّكم أتاكم كتابي هذا فابعثوا إليَّ الرهن واعتقدوا منَّا الذمَّة وأجيبوا إليَّ الجزية. وإلَّا والله الذي لا إله إلا هو لأسيرنَّ إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا).

وخطب في المسلمين وقد تهيبوا طروق المفازة من العراق إلى الشام فقال: لا يختلفن هديكم. ولا يضعفن يقينكم. واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية والاجر على قدر الحسنة. وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترثَ لشيءٍ يقع فيه معونة الله له".

ويسمع الكلمة فيردّها بالجواب المسكت كأنه يتلقى ضربةَ سَيفٍ بضربةِ سَيفٍ كما قال حين سمع صائِحًا في المعسكر يصيح: ما أكثر الروم وأقلَّ المسلمين".

فلم يكن أسرع منه إلى أن يقول: "بل ما أقلَّ الروم وأكثر المسلمين. إن الجيوش إنَّما تكثر بالنصر وتثقل بالخذلانِ".

فكلُّ كلمة منه فإنَّما هى ضربة سيف في صورة حروف ونبرات.

ومن الملاحظات الجديرة باستقراء على النفس أنه على التشابة بينه وبين عمر كان في عمر جانب فكاهة وأن كانت خشنة غليظة. ولم يكن فيه هو مث هذا الجانب في علمه أو كلامة.

وقد كان الأدنى إلى الظن – عند النظرة الأولى – أن تنمو الفكاهة مع الرجل الذي نشأ في مهد اليسار ولا تنمو مع الرجل الذي نشأ على العسر أو اليسر القليل.

لكنها النظرة الأولى ولا تتعداها.

لأن الإعسار في الواقع أعون على الفكاهة من اليسار. ومن هنا كان ولع الناس بالفكاهة في أيَّام الحروب وأزمات الشدة ومظالم الاستبداد. كأنها ضرب من التعويض والمقابلة. ولا غرابة في ذلك حيث ننظر إلى منشأ الفكاهة في جملتها. فهي على أكثرها وليدة المقارنة بين الحالات وليست وليدة الموافقة الموائمة. وما أكثر المفارقات في حياة المعسرين ولعلنا نبلغ مقطع القول في هذه الملاحظة حيث نقول: إن الموسر أقدَرُ على التسلية والمعسر أقدر على الفكاهة بين التسلية والفكاهة فرق غير مجهول. رحم الله خالدا.....

إنه كان جنديًّا وكفى!

لكنه قد عوض في جانبه الواحد عن جوانب عدة في الآخرين. لأنه قد رزق الجندية في طرازها الأول. ورزق منها وحده ما يكفي عشرة من جنود التاريخ المبرزين...